

السؤال

الملحد ، إذا طلب دليلا على : أن الله يعلم ما في السرائر ، وأن الله لا يكذب ، وأن الله لم يلد ولم يولد ؛ كيف أجيبه ؟ أرجوكم ، أنجدوني من مسائله الخبيثة ، فإننا أخاف على ديني ، قبل أن أخاف عليه ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

لاشك أن الدليل العقلي الصحيح ، يوافق الدليل النقلي ، ويدل عليه ، ومن لم تنتكس فطرته ، ولم يرتد على عقبيه : يجد أن الكون كله يشهد بربوبية الرب تعالى ، وألوهيته ، وصدق رسوله ، وتمام رسالته ، وصحة كتابه ، وجلاله وعظمته ، قال ابن القيم رحمه الله :

" وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ صَنْعٍ مِنْ صَنَائِعِهِ ، وَأَمْرٍ مِنْ شَرَائِعِهِ : حِكْمَةٌ بَاهِرَةٌ ، وَآيَةٌ ظَاهِرَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَحِكْمَتِهِ ، وَغِنَاهُ وَقِيَمِيَّتِهِ وَمَلَكِهِ ، لَا تَنْكُرُهَا إِلَّا الْعُقُولُ السَّخِيفَةُ ، وَلَا تَنْبُو عَنْهَا إِلَّا الْفُطْرُ الْمُنْكَوسَةُ :

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ * * * وَتَحْرِيكَةٍ أَبَدًا شَاهِدٌ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ * * * تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ " .

انتهى من "مفتاح دار السعادة" (2 / 66) .

" فَلَا رَيْبَ أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ عَلَى وَجُودِ فَاطِرِهِمَا وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَإِنْفِرَادِهِ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى النَّظَرِ وَالْفِكْرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الْعِظَامِ ، لِيُظْهِرَ أَثَرَ الدَّلَالَةِ فِيهَا وَيُدَيِّعَ عَجَائِبَ الصَّنْعَةِ وَالْحِكْمَةِ فِيهَا ، وَاتِّسَاعَ مَجَالِ الْفِكْرِ وَالنَّظَرِ فِي أَرْجَائِهَا " .

انتهى من "مفتاح دار السعادة" (2 / 198) .

فالأدلة على إثبات الخالق ظاهرة متكاثرة ، ويكفي أن يقال :

هذه المخلوقات المتقنة الصنع : إما أن تكون خلقت نفسها ، أو وجدت من غير خالق ، أو خلقها خالق عليم قدير .

أما الاحتمال الأول والثاني فباطلان ، معلوم بطلانهما ببدائته العقول ؛ فلا يقول عاقل إن شيئا صنع نفسه ، وأوجدها من العدم ،

أو أن شيئا صنعه من غير صانع ، ولأجل تقرر ذلك في الفطر ، قال الله تعالى : تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

الْخَالِقُونَ) الطور/ 35 .

وينظر جواب السؤال رقم : (174500) ، ورقم (26745) .

ثانيا :

إذا ثبت بالاضطرار وجود الخالق المدبر الحكيم العليم ، ثبت باللزوم أنه يعلم السرائر ويطلع على الخفايا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الملك/ 14 ، قال السعدي رحمه الله : " ثم قال - مستدلا بدليل عقلي على علمه - : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه ، كيف لا يعلمه؟! " انتهى من "تفسير السعدي" (ص 876) .

وهذا دليل عقلي يجب التسليم به ؛ لأن العبد إذا أتقن شيئا ، أو صنع صناعة ، أو اخترع اختراعا : فبالضرورة أن يكون عالما بكل تفاصيله وخبائاه ، لا يخفى عليه من أمره شيء ، لأنه صانعه ومبتكره ومكونه ، فما بالك بالله تعالى خالق الخلق من العدم ، وموجدهم على غير مثال سبق ؛ أليس أولى وأحرى أن يكون عالما بخلقه ، محيطا بهم .

ومما يدل على ذلك أيضا : أن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بكثير من أمور الغيب التي لا يعلمها أحد من العالمين ، فظهر مصداق ما أخبر ، سواء في حياته أو بعد مماته ، بل أخبر نبيه ببعض ما يستسر به المشركون ، أو يكونه في صدورهم .

روى البخاري (4817) ، ومسلم (2775) : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ - أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ - كَثِيرَةٌ شَحْمٌ بَطُونِهِمْ ، قَلِيلَةٌ فَقَهُ قُلُوبِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ) فصلت/ 22 الآية .

وينظر قصة أخرى في : "سيرة ابن هشام" (2/ 220) ، "سير أعلام النبلاء" (1/ 348) ، "البداية والنهاية" (5/210) .

ثالثا :

كيف يكذب الخلاق العليم العزيز الحكيم؟! وما الذي يحملة على الكذب ويوجهه إليه؟! ومن أبر من الله ، وأولى بالصدق منه جل جلاله؟! (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) ؛ (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)؟!

لقد كان أولى ما يظهر فيه نقص القول ، وتفاوته واضطرابه : هو كتابه الذي تحدى به الكفار : أن يأتوا بمثله ، أو بشيء منه ، أو أن يجدوا فيه تفاوتا ، أو تناقضا ؛ قال تعالى : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء/ 82 ، قال الطبري رحمه الله :

" يعني : أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله ، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك ، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم ، لا يتساق معانيه ، وائتلاف أحكامه ، وتأيد بعضه بعضاً بالتصديق ، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق ، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلقت أحكامه ، وتناقضت معانيه ، وأبان بعضه عن فساد بعض " انتهى من "تفسير الطبري" (8/ 567) .

فكل ما أخبر به من الصدق ، وكل ما جاء به من الحق ، ولم يستطع المعارضون له المخالفون لأمره أن يعثروا على قول

يناقض قول ، أو خبر يخالف الحس والواقع ، بل كل ما جاء به جاء ما يدل على صدقه بالبرهان المبين والحجة البالغة .

ثم تأمل يا عبد الله ؛ هذا الحديث ، لتعلم أن القادر ، المالك : أبعد ما يكون عن الكذب :

روى مسلم (107) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخُ زَانَ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

" وذلك لأن الملك لا يحتاج أن يكذب ، كلمته هي العليا بين الناس ، فلا حاجة إلى أن يكذب ، فإذا كذب صار يعد الناس ولكن لا يوفي ، يقول سأفعل كذا ولكن لا يفعل ، سأترك كذا ولكن لا يترك ، ويحدث الناس يلعب بعقولهم ويكذب عليهم ، فهذا والعياذ بالله داخل في هذا الوعيد ، لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والكذب حرام من الملك وغير الملك ، لكنه من الملك أعظم وأشد ؛ لأنه لا حاجة إلى أن يكذب ، كلمته بين الناس هي العليا فيجب عليه أن يكون صريحا ، إذا كان يريد الشيء ، يقول نعم ، يوافق عليه ويفعل ، وإذا كان لا يريده ، يقول لا ، يرفضه ولا يفعل ، الواحد من الرعية قد يحتاج إلى الكذب فيكذب ، ولكن الملك لا يحتاج " انتهى من "شرح رياض الصالحين" (3/ 551) .

ثالثا :

من الأدلة العقلية على أن الله تعالى لم يلد : أنه لا صاحبة له ، ومعلوم لدى كل ذي عقل أن الإنسان يلد إنسانا ، وأن البهيمة تدل بهيمة ، وأن الطائر يلد طائرا ، فالمولود يتولد من شيئين متناسبين ، فلا بد للمولود من أب وأم متناسبين . قال تعالى : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الأنعام/ 101 .

قال الطبري رحمه الله :

" الولد إنما يكون من الذكر والأنثى ، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة ، فيكون له ولد ، وذلك أنه هو الذي خلق كل شيء ، يقول: فإذا كان لا شيء إلا الله خلقه ، فأنى يكون لله ولد، ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟ " .

انتهى من "تفسير الطبري" (11/ 11) .

وقال ابن كثير رحمه الله :

" أُنَّى: كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً؟ أَي: وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا عَنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ ، وَاللَّهُ لَا يَنَاسِبُهُ وَلَا يُشَابَهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ؛ لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ " انتهى من "تفسير ابن كثير" (3/ 308) .

وقال ابن عاشور رحمه الله :

" مَنْ يُصَمِّدُ إِلَيْهِ : لَا يَكُونُ مِنْ حَالِهِ أَنْ يَلِدَ لِأَنَّ طَلَبَ الْوَلَدِ لِقَصْدِ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِ فِي إِقَامَةِ شُؤْنِ الْوَالِدِ وَتَدَارُكِ عَجْزِهِ ، وَلِذَلِكَ اسْتُدِلَّ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِهِمْ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ الْغَنِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) يُونس/ 68 ، فَبَعْدَ أَنْ أَبْطَلَتِ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِالْأَصَالَةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ ، أَبْطَلَتِ هَذِهِ الْآيَةُ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِطَرِيقِ تَوْلُدِ إِلَهٍ عَنْ إِلَهٍ ، لِأَنَّ الْمَتَوَلَّدَ مُسَاوٍ لِمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ .

وَالْتَعَدُّ بِالتَّوَلُّدِ : مُسَاوِي فِي الإِسْتِحَالَةِ لِتَعَدُّ الإِلَهِ بِالأَصَالَةِ ، لِتَسَاوِي مَا يَلْزَمُ عَلَى التَّعَدُّ فِي كِلَيْهِمَا مِنْ فَسَادِ الأَكْوَانِ المُشَارِ إِليه بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا) الأَنْبِيَاءُ / 22 وَهُوَ يُرْهَانُ التَّمَانُعَ ، وَلِأَنَّهُ لَوْ تَوَلَّدَ عَنِ اللَّهِ مَوْجُودٌ آخَرَ لِلزَّمِ انْفِصَالٌ جُزْءٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ مُنَافٍ لِلأَحَدِيَّةِ ، لِأَنَّ البِنُوَّةَ لِلإِلَهِ تَقْتَضِيهِ الإِلَهِيَّةَ الإِبْنِ " انتهى من "التحرير والتنوير" (618 / 30)

رابعاً :

أما كونه سبحانه لم يولد ، فمعلوم بالاضطرار أيضا ؛ لأنه لو كان له والد : لكان هذا الوالد إليها عظيما ، ولكان أولى من ولده بتدبير الملكوت ، وتسيير الأمور ، وهذا شأن الملك في الناس كلهم : أن الولد يرث الملك عن أبيه .

قال أبو سعيد الصنعاني رحمه الله :

" ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله جل ثناؤه لا يموت ولا يورث " انتهى من "تفسير الطبري" (691 / 24) .

ولأننا لو أثبتنا له الوالد لنسبناه ، إلى العدم قبل أن يولد ، وهذا محال ؛ فإن من خلق من العدم : لا يكون إليها ، بل يكون الذي خلقه هو الإله ، وهنا يرد عليه نفس السؤال ، حتى ينتهي الأمر إلى السفسطة المحضة ، أو إبطال وجود الإله الخالق من أصله ، وقد تكلمنا عن هذا الفرض سابقا .

قال ابن عاشور رحمه الله :

" مَنْ يَكُونُ مَوْلُودًا مِثْلَ عِيسَى لَا يَكُونُ إِلهًا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الإِلَهِ مَوْلُودًا لَكَانَ وُجُودُهُ مَسْبُوقًا بَعْدَمٍ لَا مَحَالَةَ ، وَذَلِكَ مُحَالٌ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَسْبُوقًا بَعْدَمٍ لَكَانَ مُفْتَقِرًا إِلَى مَنْ يُخَصِّصُهُ بِالْوُجُودِ بَعْدَ العَدَمِ ، فَحَصَلَ مِنْ مَجْمُوعِ جُمْلَةٍ : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) إِبْطَالٌ أَنَّ يَكُونُ اللَّهُ وَالِدًا لِمَوْلُودٍ ، أَوْ مَوْلُودًا مِنْ وَالِدٍ بِالصَّرَاحَةِ . وَطَلَّتْ إِلهِيَّةُ كُلِّ مَوْلُودٍ بِطَرِيقِ الكِنَايَةِ ، فَبَطَلَتْ العُقَائِدُ المَبْنِيَّةُ عَلَى تَوَلُّدِ الإِلَهِ " .

انتهى من "التحرير والتنوير" (619 / 30) .

راجع للاستزادة جواب السؤال رقم : (5105) ، (175339) .

خامساً :

الذي ننصحك به ألا تشغل نفسك بشبهات الملاحدة وأباطيلهم ، فليس عليك من شأنهم شيء ، وإنما حوراهم والرد على شبهاتهم : للمتخصصين ، العارفين بآخذ القول ، وكيفية الرد والنقاش والجدال .

وعليك بتلاوة القرآن وتدبره ، وصحبة أهل الخير ، الذين يحرصون عليه ، ويدعون إليه ، وهذه الصحبة من أعظم ما يثبت به الله عبده على دينه ، ويصرف عنه به السوء .

وينظر جواب السؤال رقم : (92781) .

والله تعالى أعلم .